نظريات تفسير التاريخ

البحث الثاني: نظرية الفعل الإنساني في التاريخ

في هذا البحث نتطرق إلى نظرية التقدم خلال القرن السابع عشر ، وخصوصا مع عصر التنوير عصر (الاعتزاز بالمعرفة والإيمان بالعقل والأمل في المستقبل، حيث حمل هذا المفهوم نخبة من المفكرين والمثقفين من أمثال فولتير ومونتسكيو وكوندريسه وغيرهم من المفكرين الموسوعيين آمنوا بالتغيير وجعلوه شعارا لهم. وما أدي كذلك تبني فكرة التقدم والدفاع عليها الكشوف العلمية التي توصل إليها الإنسان خصوصا في مجال العلوم الحقة (الفيزياء والكيمياء والرياضيات.....). وكذلك ما جعل هذا المفهوم يلقى تداولا كبيرا لذي فئة من المثقفين والمفكرين هو تنامي النزعة الإنسانية التي تعلي من شأن الإنسان وتجعله مركز الكون باعتباره ذات عاقلة ومفكرة. إضافة إلى أن هذا العصر شهد سيادة فلسفة عقلية تجريبية ترفض الميتافيزيقا والدين وتهتم بالرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء والتاريخ والجغرافيا والطب، فلسفة تؤمن بالتغيير وتسعى إلى التجديد في كل شيء، تحدوها ثقة مطلقة في العقل ويدور التفكير فيها حول الإنسان، فالاهتمام بالتاريخ في هذا القرن مظهر من مظاهر الاهتمام بالإنسان، حيث لم يصبح التاريخ مجرد سرد لأحداث معارك وسير الملوك وأخبار البلاط، وإنما شمل التاريخ شتى مظاهر النشاط الإنساني ممثلا في الجوانب المختلفة للحضارة من عادات ومعتقدات وتشريع وعلم وفلسفة وفن وتكنولوجيا وتجارة وصناعة.إن الحروب وسير الملوك لا تفصح عن التقدم بقدر ما يفصح عن نشاط الشعب في مجالات العلم والفن والفلسفة والأدب والتكنولوجيا وغير ذلك. كما أن دراسة التاريخ لا ينبغي أن تكون وقفا على تاريخ أوروبا، بل تشمل مختلف الشعوب البدائية وحضارات الشرق القديم، ومن تم فقد انتقد كتاب بوسويه "مقال في التاريخ العالمي" فليس في نظره تاريخا عالميا ذلك الذي حصر التاريخ في أربعة أو خمسة شعوب، وتجاهل الشعوب الأخرى الشرقية ذات الحضارات المجيدة كالصين و الهند وفارس وبابل وسوريا ومصر. كما أعاد فولتير تقييم وقائع التاريخ الأوروبي في العصر القديم والوسيط، إن أرقى عصور التاريخ يتمثل في فترات أربعة، التاريخ اليوناني القديم تم الدولة الرومانية وأخيرا عصر التنوير والأخير أكثر

استنارة، كما انتقد مفهوم العناية الإلهية لاستبعاده لتحديد مسار التاريخ، ذلك أن الله إما قادر على أن يزيل الشر عن العالم أو لا، أو أنه يريد الشر . إلى جانب فولتير نجد كوندرسيه الذي اهتم بمفهوم التقدم كمفهوم أساسي ومحوري في تطور التاريخ حيث اعتبر أن تاريخ البشر يسير نحو التقدم ومن الأفضل إلى الأحسن. ولإثبات هذه الفكرة رصد أهم مراحل تطور الفكر البشري: المرحلة الأولى: حيث اجتمع الأفراد على هيئة عشيرة، فيما صنع الإنسان الأسلحة، وكان رؤساء العشيرة يحددون التنظيم الاجتماعي والأخلاقي والسياسي، في هذه المرحلة تكونت لدى الإنسان مفاهيم بدائية عن الكون. المرحلة الثانية: عصر الأقوام الرعاة، حيث استأنس الإنسان بالحيوان وفي هذه المرحلة ظهرت بعض الحرف كصناعة النسيج، وعرف الإنسان طريقة المقايضة وتزايد سلطان السحرة وأصبحت لهم امتيازات. المرحلة الثالثة: عصر الزراعة واختراع الكتابة، حيث تعلق المزارعين بالأرض وخضعوا أحيانا للغزاة، فكان أن نشأ الرق وتكون النظام الإقطاعي. المرحلة الرابعة: من التدوين إلى تقسيم العلوم، تمثل هذه المرحلة الخطوة الأولى في تقدم الفكر البشري، حيث تلقى اليونان ثرتا وسعا وفنونا عديدة ومعارف علمية ومعتقدات دينية من الشرق وأمتاز اليونان أنهم لم يكونوا من طبقة كهان تحتكر العلم كما كان حال الشرق، فنشأ الفكر الحر في هذه المرحلة، فكرة الدرة عند ديمقريطس والرياضيات عند فيتاغورس. المرحلة الخامسة: عصر تقدم العلوم، وتبدأ هذه الفترة بأرسطو وهو لم يحصر العلوم في تصنيفه فحسب بل وطبق المنهج الفلسفي على الخطابة والشعر. المرحلة السادسة: من انحطاط العلوم إلى بعثها، انحدر العلم وانتشر الجهل وشاع الفساد وساد حكم القوة فدمرت غزوات البرابرة حضارة الرمان بآدابها ورخائها.

المرحلة السابعة: من بعث العلوم إلى اختراع الطباعة: ثمة أربعة أسباب نبهت الفكر الإنساني وأيقظته من سباته. تسلط الكنيسة وفقدان الاحترام لرجال الدين الأمر الذي انعكس على الدين نفسه، تحرر المدن وسعي بعض الملوك إلى تأييدها ضد النبلاء، الحروب الصليبية وهذه إن كانت وليدة التعصب إلا أنها جعلت المسلمين فيها يحتكون بالعالم الشرقي وحضاراته وعلومه، نشأة الجامعات التي أصبحت مراكز للفكر. المرحلة الثامنة: من إختراع الطباعة حتى طرح نيران السلطة التقليدية، إن ثلاثة وقائع كان لها أهميتها في هذه المرحلة،

اختراع الطباعة، واحتلال المسلمين القسطنطينية، واكتشاف العالم الجديد. المرحلة التاسعة: ظهور ديكارت وجليلو وبيكون إن ذكر هذه المراحل ليس من باب الاستعراض ووقائع وأحداث فكرية ومعرفية وفلسفية وحضارية وسياسية، وإنما من باب التأكيد على أنه هناك تطور وتقدم يحكم المعرفة التاريخية والعقل البشري، وهذا التقدم يحدث عبر مجموعة من التحولات التي تحدت داخل التاريخ. غير ما يمكن أن يعاب كذلك على كونديرسه هو أنه في رصده لمراحل تطور مفهوم التقدم وقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه فولتير فهو أشار إلى أهم المراحل التي تؤسس لفكرة التقدم في التاريخ متناسيا أهم المراحل التي كانت في تاريخ الفكر البشري التي ساهمت بشكل أو بآخر في الانتقال إلى مرحلة التقدم رغم أنها كان يحكمها التدهور والانحطاط، فمثلا رغم أن العصور الوسطى تنعت بعصور الظلام والجهل إلا أنها كانت في بعض مظاهرها مؤسسة لظهور العصر الحديث وخصوصا خلال المرحلة التي تم التقاء الفكر العربي الإسلامي بالفكر الأوربي.

اليحث الثالث: نظرية التعاقب الدوري من خلال تفسير كل من بن خلدون ومالك بن نبي

نقصد لنظرية التعاقب الدوري ذلك الاتجاه الذي يرى أن " التاريخ يسير في دورات متتالية ومتشابهة ، بحيث تعود الأحداث السابقة من جديد بأشكال متقاربة ، وتترتب عليها النتائج نفسها ، كما ير رواد هذا الاتجاه ويرى هذا الاتجاه أيضاً أن التاريخ يسير في صيرورة وديمومة دائرية يخضع لها الإنسان والشعوب والحضارات . وهذا الإيقاع الدائري لا يخرج عن ثلاثة مراحل هي : النمو – الصعود – الهبوط. حيث يرى بن خلدون أنه تتعاقب على الدول والحضارات أطوار ثلاثة:**1- طور البداوة:** كمعيشة البدو في الصحاري والبربر في الجبار والتتار في السهول، وهؤلاء جميعاً لا يخضعون لقوانين مدنية ولا تحكمهم سوى حاجاتهم وعاداتهم. 2- **طور التحضير:** حيث تأسيس الدولة عقب الغزو والفتح ثم الاستقرار في المدن.3 - **طور التدهور:** نتيجة الانغماس في الترف والمجون. ويعتقد أن العوامل التي ساهمت في قيام الدولة هي نفسها العوامل التي تساهم في تدهورها، وتتمثل هذه العوامل في: **العصبية** التي هي أساس قوة القبيلة ولا تكون الرياسة إلا في أهل أقوى العصائب وأن العصبية تهدف إلى الملك وتنقل المجتمع من البداوة إلى التحضر. ولكن إذا كان صاحب

الدولة قد وصل إلى الرياسة بمقتضى العصبية فإن، الرياسة لا تستحكم له إلا إذا جدع أنوف أهل عصبيته وعشيرته المقاسمين له في نسبه، ومن ثم فإنه يدافعهم عن الأمر ولا يطيب له الملك إلا بالاستغناء عن العصبية التي بها اكتسب المجد، ثمة إذن قضيتان متعارضتان في مسار التاريخ :بالعصبية تتم الرياسة، ولا تطيب الرياسة إلا بالاستغناء عن المعصية ، أو بتعبير آخر: أهل العصبية عون لصاحب الدولة في قيامها، أهل العصبية مناوثون لصاحب الدولة في رياسته، وثمة مركّب لهاتين القضيتين: اتخاذ الموالي والصنائع كبيد عن أهل العصبية ومن ثم تتم حركة التاريخ: بداية تدهور الدولة.ثمة عامل آخر وهو **الترف:** انه يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها، انه غاية الحضارة والملك، به تتباهى الدول المتحضرة وبه تقاس حضارتها وقوتها، وبه ترهب الدول المجاورة، ولكن الترف هو العلة الأساسية لتفشي الخلل في الدول ، انه مؤذن بالفساد ، إذا حصل الترف أقبلت الدولة على الهرم. وقد اعتمد ابن خلدون في دراسته هذه على المنهج: **-الديناميكية** وهذه ما تجعلنا ندرج نظريته في فلسفة التاريخ لا علم الاجتماع، انه مع تسليمه بوحدة الطبيعة الإنسانية، انه مع تسليمه بذلك يرى انه من اللط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الإعصار ومرور الأيام وأن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال. – **الديالكتيكية:** انه كان لابن خلدون تصور واضح المعالم عن الديالكتيكية كمنهج – كما هو الحال لدى هيجل – حتى يطبقه على التاريخ ومساره ، وإنما يمكن أن تستخلص الديالكتيكية من مسار نظريته.

أما فيما مالك بن نبي فقد رأى بأن أن الحضارة لا تستقر في مكان واحد في الأرض، كما أنها لا تتمركز في رقعة جغرافية معينة، أو عند شعب معين، بل تسير وتتحرك من مكان لآخر، ومن شعب لآخر:(... لأن الحضارة تسير كما تسير الشمس، فكأنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب، ثم متحولة إلى أفق شعب آخر...) وهي تتأسس على ثلاث خطوات كالآتي: **خ1:الطور الأموي :**وهي مرحلة التعامل العشوائي مع عالم الأشياء المحيطة به، دون إدراكٍ لعالم الأشخاص عدا وشخص أمه. **خ2: الطور ما قبل الاجتماعي :** وهي مرحلة التعامل مع عالم الأشخاص المحيطين به، دون إدراكٍ لعالم الأفكار. **خ3: الطور الاجتماعي :**وهو الطور المدرسي وما بعد المدرسي، وفيه يحاول إقامة الصلة بين العوالم الثلاثة في داخله (أشياء، أشخاص، أفكار). وتمر الحضارة عنده بثلاث مراحل تتمثل في: **م1: مرحلة القيام الروحية:** وميزة هذه المرحلة هو الالتزام بالمبدأ التعبدي الشخصي، أو

التعبد الجمعي(العلاقات الاجتماعية). وفي هذه المرحلة تكون كل الملكات (الغرائز، العقل) تحت سيطرة الروح، فإذا ما أفلتت الروح، وظهرت بوادر الفتور، انتهت مرحلة التألق والإشعاع، لتبدأ مرحلة جديدة. **م2: مرحلة العقل:** هنا تكون جميع الخصائص والملكات تحت سيطرة العقل، متجهة نحو المشكلة المادية. وتصبح مرحلة العقل مرادفة للحسابات الشخصية والأنانية والمصلحة، وتمزق الجوانب الاجتماعية من خيوط شبكة العلاقات، فتحصل بعض التفككات الروحية في الفرد وفي روح الجماعة والمجتمع بانفصال الأساس المعرفي عن البعد الثقافي، وبانفصال الأساس الإيماني عن البعد السلوكي. **م3: مرحلة الغريزة المتحررة من الروح والعقل:** وهنا يسود المرض الاجتماعي، وتظهر آثاره في علاقات الأفراد وأخلاقهم، فيكون تضخم الأنا وانتفاخها، وتتحلل شبكة العلاقات الاجتماعية عندما يسترد استقلاله وسلطته في داخل الجسد الاجتماعي. وتميل الكفة في هذه المرحلة إلى التشيئية، ويسود قانون الكم والعدد.. ويسود المجتمع الانحطاط، فينتهي المجتمع، ويخرج عن دائرة الحضارة، ويعود الإنسان إلى مستوى الحياة البدائية، ولا يعود الإنسان والتراب والوقت عوامل حضارة، بل تصبح عناصر خاملة لا صلة بينها. ويرى بن نبي أن لكي يصبح المجتمع متحضرا عليه أن يبلغ عمر الفكرة، وهذه الفكرة تتمثل في جملة عوامل معنوية ومادية تتيح لهذا المجتمع أن يوفر لكل فرد من أفراده جميع الضمانات والضوابط الاجتماعية اللازمة لمواصلة عملية التحضر. لأن الحضارة هي: القدرة على القيام بوظيفة أو بمهمة معينة تخدم تقدم ونمو المجتمع. ولكي يحقق ذلك عليه بالأخذ بهذه الشروط: **1-** انتصار عالم الأفكار السليمة على الأفكار الميتة والمشوشة.2- وضوح وأصالة المنهج المتبع في تنمية الفرد والجماعة.3- انعدام فاعلية عقدة القابلية للاستعمار.4 - تفاعل مجموع الأشخاص مع ضروب التراب ومجموع الأزمنة في تفاعل معاجلة الناتج الحضاري [إنسان+ تراب + زمن = حضارة]. ومن اجل الوصول إلى الرقي الحضاري على المجتمع ان ينظر في مشكلة الانسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت، أما فيما يخص **مشكلة الانسان** فتكون عبر *- توجيه الفكر والثقافة للإنسان المتحضر، وذلك بتشبيعه وريه بأبعادها الأربعة [الدين والخلق، والتذوق الجمالي، والعلم، والتمكن الصناعي والتكنولوجي].ثم *- توجيه قيم العمل الجماعي في الإنسان لصناعة الإنسان الكائن المتحضر. وفي الأخير *- توجيه ووضوح سياسة المال لخدمة الكائن المتحضر. وبخصوص **مشكلة التراب:** وهنا يبدو أثر وفاعلية الإنسان ككائن يسعى للتحضر لتحريك التراب الجامد وتحويله إلى منجزات حضارية، وأخيرا **مشكلة الوقت:** وهنا يتجه الإنسان لتبيين تأثيره في الاستفادة من الوقت. علينا أن نشير هنا إلى أن بن نبي يرى بأن التاريخ خاضع للحتمية، حيث اختار قانون الحتمية والعلية وأيد الجبر التاريخي، إذ لا معنى للحرية إلا التنبيه للضرورة التاريخية، ومعرفة هذه القوانين تجعل الإنسان هو الذي يحرك التاريخ ويصنع الثورات(أي أن معرفة الأسباب تسمح بالتغيير). كما أن الإنسان في مسيرة الحركة الجوهرية العامة للوجود يكتسب حريته ويغير مجتمعه من خلال إدراكه للقوانين الطبيعية التي تتحكم في التطور والتكامل.

بالرغم من أن ابن خلدون هو السباق في وضع أسس نظرية التعاقب الدوري للتاريخ، وفي نفس الوقت يعتبر الملهم الأول لمالك بن نبي في وضعه تأسيسه لنظرية الدور الحضاري، إلا هناك نقاط اختلاف بينهما نذكر منها: أ- من حيث المفاهيم: استخدم مالك بن

نبي المفاهيم العلمية في تنظيراته بطريقة تختلف عن رواد الدورة الحضارية الذين استخدموا مفاهيم تاريخية.

ب- البديل: لم يتوقف مالك عند دراسة المجتمع ومعرفة أسباب التدهور والتخلف بل طرح مشروعاً تغييرياً ثقافياً واجتماعياً.

ج- التجدد: تميز مالك بن نبي على ابن خلدون بتطوير (الدورة الحضارية) والارتفاع بها إلى مستوى الحضارة بدلاً من (الدولة).

ت- التغيير: عند مالك مرحلة الأفول للدورة الحضارية غير حتمية بل إن الواقع قابل للتغيير. فصحيح أن بن نبي يقبل بدورة الحضارة على طريقة ابن خلدون: نقطة البداية، الصّعود إلى القمّة أو الأوج، الأفول؛ لكنّه لا يُسلّم بأنّه مكتوب أبدا على حضارة خفّت ضياؤها وسدر أبناؤها في ليل طويل أن لا تقوم لها بعد ذلك قائمة، لأنّ اليقظة أو النّهضة مرهونة في رأيه بما نصّت عليه الآية القرآنيّة: "إنّ الله لا يُغيّر ما بقوم حتّى يُغيّروا ما بأنفسهم." ومعنى ذلك أنّ بعث الحضارة وولادتها من جديد أمران ممكنان تماما إذا ما توافرت بعض الشّروط الإنسانية الذاتية –السالف ذكرها-.

البحث الرابع: التفسير البيولوجي للتاريخ عند شبنجلر

- أقام شبنجلر فلسفته على عدد من الأسس، أبرزها تلك القائلة بأن المجتمعات، وثقافاتها تمر بمراحل ولادة ونمو واكتمال يعقبها انحدار واضمحلال. وقد أتاحت له تلك الأطروحة، كما أتاحت من قبله للفيلسوف والمؤرخ العربي عبد الرحمن بن خلدون، أن يتوصل إلى أن المؤرخ لا يقرأ الماضي فحسب وإنما يقرأ المستقبل أيضًا. وعلى هذا الأساس توصل شبنجلر إلى أن الثقافة الغربية قد تجاوزت مرحلة الإبداع، ودخلت مرحلة التأمل، أو "الحضارة" كما يسميها، التي تؤذن بالانحدار والاضمحلال.وقد استبدل شبنجلر مقولة العلية بمقولة المصير في تفسيره للتاريخ لأنه يرفض أن يفهم مسار التاريخ على انه تقدم مطردا للعقل البشري إلى ما لا نهاية -وهذا كما جسدته نظرية التقدم- فالتاريخ حسبه مسرح لعدد كبير من الحضارات يسري عليها ما يسري على الكائنات العضوية تنبت وتنضج وتذبل وتفنى. كما فند في تأسيسه لنظريته البيولوجية للتاريخ العديد من الأفكار والنظريات نذكر منها: - فكرة التقدم عند فولتير – فكرة السلام الدائم عند كانط- فكرة حرية الروح وفقا لديالكتيك هيجل – فكرة نمو المجتمع اللاطبقي عند ماركس._لأن كل تلك الأفكار لا تعبر عن دورة حياة كل الحضارات أي أنها أفكار خاصة وليست عامة._ولأجل هذا دعا شبنجلر إلى إحداث ثورة كوبرنيكية في التاريخ بغية أن يستبدل التصور السابق الذي يضع الحضارة الأوروبية مركز جميع الحضارات ومركز

الأحداث العالمية، بالتصور الذي يدرس كل حضارة على حدة، فلا الحضارة الأوروبية غيرها من الحضارات، لأنه ربما كانت هناك من الحضارات ما تفوق الحضارة الأوروبية من حيث عدد الشعوب المنتمية إليها ومن حيث عظمتها الروحية. إضافة إلى أنه إذا كانت كل حضارة تعبر عن دورة حياة مقفلة فلا مجال للقول بالأصول الأجنبية لمظاهر الحياة، عذلك راجع إلى وهم عالمية الحضارة. لأن ظاهرة تأثر الحضارة ببعضها مجرد وهم، فحتى لو كانت الفكرة المقتبسة من حضارة ما فإنها ستكون غير مكتملة في الحضارة الأخرى لان الحضارة المتأثرة سترحب بالفكرة حسب ما يتلاءم مع معتقداتها وروح المجتمع، وهذا ما يعتبره شبنجلر تشويها للفكرة الأصلية وبالتالي فكل تشابه بين الحضارات هو تشابه ظاهري فقط، وعليه فالقول بتراث واحد للإنسانية أو تصور التأثر والتأثير ليس إلا وهما. وقد سمى شبنجلر ظاهرة التأثر بحضارة الغالب بـ: التشكل الكاذب. وقد تتعرض كل حضارة إلى مجموعة من الحالات حصرها شبنجلر في:

ح1- حالة ميلاد حضارة جديدة حيث تساعد العوامل الخارجية في استيقاظ فجائي لحضارة جديدة بإمكانيات خصبة، فتخرج هذه الحضارة إلى حيز الوجود في بيئة يكون كل ما حولها في فوضى مطلقة فتمتد في خطوط رائعة في شتى المجالات لغة –فن- دين- علم ...لتفرض إرادتها بالقوة على الفوضى محطمة إياها فتشيع النظام وتطبع ما حولها بطابعها. **ح2-** حالة التشكل الكاذب: عندما تتلاقى حضارتين احدهما اشد قوة والأخرى أعظم إبداعا وأكثر عراقة، فتضطر المهزومة أن تتلاءم ظاهريا مع الحضارة الغالبة (أشد قوة) ما دامت لا تستطيع أن تنمو معبرة عن طبيعتها الخالصة، وتتشكل هذه الحضارة في القوالب الفارغة التي فرضتها عليها الحضارة الأجنبية، ويظن الناظر إلى السطح أن الحضارة المغلوبة قد اختفت بينما هي كامنة خلف القشرة الخارجية التي فرضت عليها.**ح3-** حالة زوال حضارة: عندما تلتقي حضارة أعظم إبداع وأكثر عراقة واشد قوة مع حضارة لازالت في طور المهد، فتختنق الأخيرة وتزول كحضارة الهنود الحمر في الأمريكتين التي قضت عليها الحضارة الغربية الحديثة. ومن **مظاهر انحلال و تدهور الحضارة وتحولها إلى مدنية حسب رأي شبنجلر نذكر:** - تحول الكيف إلى كم مطلق.- سيادة الآلة البحتة وانعدام الابتكار الفني والفلسفي.- سيطرة الاتجاهات اللادينية-

استحالت الوسائل إلى غايات وفد تمثل ذلك في مجالين النقد والآلة حيث بعد أن كان النقد وسيلة للتبادل استحال إلى غاية فأصبحت قيمة كل شيء تقاس بالنقد وأصبحت السياسة يحركها الاقتصاد، وبعد أن أصبح الانسان ثري لأنه قوي أصبح قوي لأنه ثري، وبعد أن أصبح الريف مظهر الحياة أصبحت المدينة لأنها رأس المال، لقد وجدت الآلة لسعادة الانسان إلا أنها أخضعت كل شيء إليها فسادت التشيئية. ***عموما نستنتج أن تسلط المادة على القيم الروحية يعد باعثا لاضمحلال أي حضارة فالحضارة الحقة حسب شبنجلر لا تقاس لقوة الأحصنة بل بالقوة الروحية. وقد تعرضت نظرية التفسير البيوبوجي غند شبنجلر الى مجموعة من الانتقادات منها:*** -بالرغم من براعة شبنجلر في عرضه لنظرية التفسير البيولوجي إلا أن هناك من يرى أن فكرة التشابه بين الدول والكائنات الحية، فكرة غير سليمة لأن الدول أو المجتمعات لا تشبه الكائنات الحية، فإن الكائن الحي يبدأ في الموت بعد أن يصل جسمه إلى درجة معينة من النمو، في حين أن الشعوب أو الجماعات يتجدد شبابها مع ميلاد كل جيل ونحن نقول مثلا أن الكائن الحي يشيخ وأن الأمة تشيخ، فأما شيخوخة الكائن فمفهومة وأما شيخوخة الأمة فكيف تكون؟ هل يولد أطفالها جميعا في فترة ما شيوخا؟ الحق أن شيخوخة الأمة مفهوم آخر يختلف كل الاختلاف عن شيخوخة الكائن الحي، وهي في الحقيقة ليست شيخوخة ، وإنما ضعف وفساد وظواهر اجتماعية وسياسية تختلف كل الاختلاف عن الشيخوخة العضوية. -كما تعرض لحملة نقد عنيفة من طرف الغربيين بسبب النبؤة السوداء للحضارة الغربية، حيث اعتقد شبنجلر أن حضارة الغرب في أوج نضجها فما بقي لها إلا أن تنتظر مرحلة أفولها وانحطاطها ويستحيل إعادتها وتجديدها وإعادة الشباب لها، مثلما يستحيل إعادة الشباب إلى إنسان أنهكته الشيخوخة (الدورة الحتمية). وهناك من يرى أن أراء شبنجلر لا تتسم بالتحليل العقلي أو الأحكام العلية، بقدر ما تتسم دراسته للتاريخ بالطابع الشعري والأحكام الجمالية.

بالرغم من موجة النقد التي تعرض بها شبنجلر بسبب تمثيل الحضارة بالكائن الحي، فإن أحدا لم يقدم إجابة شافية عن إمكان أن تتحاشى حضارة ما مصير سائر الحضارات من

تدهور وفناء. وقد أثرت أفكاره هذه في العديد من المؤخرين والمفكرين ومن بينهم أرلوند توينبي، كولن، ولسن وهربرت ماركيوز وغيرهم.

البحث الخامس: نظرية التحدي والاستجابة في تفسير التاريخ عند ارلوند توينبي

لقد رفض توينبي في دراسته للتاريخ العديد من الأفكار والمعتقدات التي كان يتبناها المؤرخون السابقون ومنها- تفضيل الحضارة الغربية على باقي الحضارات بحجة عظمتها وقيمتها، فحسبه أن هناك حضارات أخرى أكثر خصوبة مثل الحضارة السوريانية التي أنجبت المسيحية والإسلام، والسندية التي أنجبت ديانتي البراهمة والبوذية، ومن ناحية المدد الزمنية فإن الحضارة المصرية القديمة تعادل ثلاثة أمثال الفترة الزمنية لحياة المجتمع الغربي منذ قيامه إلى الآن. -كما رفض توينبي عرف مؤرخي التاريخ في تقسيمهم الثلاثي للتاريخ قديم ووسيط وحديث لأن هذا التقسيم يلغي دور الحضارات الأخرى في التاريخ، بحكم أنه يتناول فقط أوروبا والبحر المتوسط فقط. -وانتقد النظرية العرقية التي تعتبر الجنس النوردي ذا البشرة البيضاء والشر الأصفر والعيون الزرقاء –او ما يسميه نيتشه الوحش الأشقر- أسمى الأجناس لأنه يعتبر ذلك ضرب من ضروب الأنانية والعنصرية، باعتبار أن معظم الأجناس ساهمت في قيام الحضارات، كما أن التفوق الروحي والفكر لا علاقة له بلون البشرة.- واستبعد كذلك القومية كوحدة الدراسة التاريخية ليس فحسب قد ترتبط بالنزعة العنصرية، وإنما لأن الأمة جزء غير مكتف بذاته بل مفتقر إلى ما هو اشمل منه، ومن ثم فإن الوحدة الدراسة التاريخية هي الحضارة التي تضم عدة الأمم. -وفند كذلك توينبي نظرية الروح عند هيجل في تفسيره للتاريخ، لأنها أنتجت مشكلة أخلاقية حيث تحولت العبادة من عبادة الله إلى عبادة الدولة بحكم تقديس الفرد والمجتمع كروح. بالإضافة إلى انتقاده للاتجاه الذي لم يجد في أحداث التاريخ إلا المصادفات، فالتاريخ حسب توينبي ليس مجرد آلة شيطانية تبتلي الناس بعذاب سرمدي، بل هناك إيقاعا أساسيا يتمثل في التحدي والاستجابة في الانسحاب والعودة، في النكسة والنهضة، في الانشقاق والعودة، كما الصدفة تحمل معنى الضرورة والحتمية وهذا لا يتماشى مع المعنى الحقيقي للتاريخ، فهو قد رفض مسبقا الحتمية التشاؤمية اللازمة عن نظرية التعاقب الدوري للحضارات لدى شبنجلر. لينطلق بعد هذا

الرفض في تأسيسه نظريته التحدي والاستجابة من المجتمع وليس الأمة بحكم أن الثانية جزء من الكل، وحصر الوحدات التاريخية لمجتمعات العالم تتمثل في: -الحضارة المسيحية الغربية (أوروبا وأمريكا)- الحضارة المسيحية الشرقية الأرثودكسية (روسيا ودول البلقان)- الحضارة الإسلامية – الحضارة الهندية (الهندوكية وبوذية الهينايانا) – حضارة الشرق الأقصى او بوذية الماهايانا. هذه هي الحضارات الخمسة المتبقية من إحدى وعشرين حضارة اندثرت. *ومن الملاحظ أن توينبي يرد الحضارات إلى الأديان، ذلك أن الإمبراطوريات ليست هي مقياس الحضارة، على العكس إنها تمثل بداية مرحلة انهيار الحضارة، إذ تلجأ الأقلية المسيطرة إلى التوسع حين تفقد مقومات الإبداع، كما أن الإمبراطورية لا تحمل إلا سلاما مؤقتا ولا تقدم حلولا جذرية لمشكلات مجتمعاتها على الأديان، إذ وراء كل حضارة قائمة اليوم ديانة عالمية. ولا* يقر توينبي لا بعالمية الحضارة ولا بوحدتها، لأنه حسبه أن دراسة الحضارات أعقد من القول أننا نشرب شاي الشرق الأقصى والقهوة العربية وكاكاو أمريكا الوسطى وندخن تبغ أمريكا الجنوبية، ولأن القول بوحدة الحضارة قد اتخذ ذريعة لاعتبار الحضارات مقدمات للحضارة الأوروبية، كما أن تصور وحدتها من حيث نشأتها يرد بداياتها إلى الحضارة المصرية القديمة إذ ليس بين الحضارات اللاحقة ما ينتسب إلى الحضارة المصرية بصلة البنوة، فكما لم يكن للحضارة المصرية القديمة أباء لم يكن لها أبناء.

تنشأ الحضارة من خلال دافعي التحدي والاستجابة، حيث يرى توينبي أن العامل البيئي وحده ليس كافي لقيام حضارة بل يجب على الانسان أن يضيف تعديلا عليه، فالبيئة السهلة لا تنشئ حضارة، لأن الحضارة لا تنمو في بيئة جاهزة، فمثلا قد ازدهرت الحضارة في مناطق سوريا الجرداء لا في مناطقها الخصبة، كذلك دلتا النيل المغطاة بالمستنقعات والأدغال فعدل المصري القديم فيها حتى صلحت لقيام حضارة، فالظروف الصعبة لا السهلة هي التي تستحث الانسان على التحضر، بل إن رقة العيش حائل دون قيام الحضارات، وتتمثل الظروف الصعبة إما في بيئة طبيعية او ظروف بشرية، حيث تدفع البيئة الصعبة الانسان على تغيير موطنه او تعديل طريقة العيش، وبالتالي فإن الانقراض هو نتيجة إخفاقهم في الاستجابة لتحدي الجفاف، أما تحدي الوسط البشري فيتمثل في عدوان خارجي من دولة

مجاورة او جماعة بشرية، وهنا يبرز دافعي التحدي والاستجابة، أما في التحدي للغازي او الاستجابة له، كما حدث ذلك للحضارة الهيلينية التي أزاحها الإسلام من سورية ومصر ثم القضاء على الدولة الرومانية الشرقية... ويضيف توينبي انه ليس بالضرورة أن تخضع الدول المغلوبة إلى قيم وعادات الغالب، بل على العكس ففي بعض الحالات يضطر الغالب إلى تقمص عادات وتقاليد المغلوب بل وصل الحد إلى اعتناق ديانتهم وهذا ما حصل للشعب الغالب (الرومان) الذي اعتنق الشعب المغلوب (السوريانى) هذا على المستوى الجمعي، أما فيما يخص المستوى الفردي فقد استطاعت بعض الفئات المغلوبة ذات العاهات أن تعوض عجزها في مجالات أخرى كالشعر والحرف والفلسفة... فالأعمى العاجز عن القتال يكون شاعرا يردد الجنود أناشيده "هوميروس" والأعرج يصنع الدروع، وقد كان " ابتيكوس" العبد الرواقي الأعرج يعلم فلسفته لأبناء الأسر الرومانية الراقية. وعليه فقد ينجح الغالب في السيطرة على المغلوب عسكريا ولكنه قد يخفق في السيطرة عليه روحيا. وتتخذ الاستجابة في علاقتها بالتحدي ثلاثة صور: **ص1:** إن قصور التحدي يجعل الطرف الآخر عاجزا تماما عن استجابة ناجحة (استجابة فاشلة).**ص2:** أن يحطم التحدي البالغ الشدة روح الطرف الآخر (استجابة فاشلة). **ص3:** أن يصل التحدي إلى درجة معقولة تستثير الطاقات المبدعة (استجابة ناجحة). وتجدر الإشارة هنا **:** *إن التحدي الأمثل لا يتمثل فقط في استجابة واحدة ناجحة، بل يجب أن تشكل هذه الاستجابة الناجحة بدورها تحديا للطرف الآخر تحمله على الدخول في مرحلة صراع جديد أي من حالة الين (الركود) إلى حالة واليانج (القوة الدافعة) مرة أخرى حتى الفعل ورد الفعل إيقاعا منتظما يحمل كل طرف على محاولة ترجيح كفة ميزانه لا الوقوف بها عند حالة التوازن.*

لم يحذو توينبي حذو المؤرخين الذين فسروا انهيار الحضارة بالضرورة الحتمية الناتجة عن نظرية التعاقب الدوري للحضارات (ميلاد –فتوة- شيخوخة وفناء) مثل شبنجلر وابن خلدون، ولم يفسرها كذلك بناء على الغزو الخارجي، لأن الحضارة –حسبه- تنهار داخليا قبل أن تطأها أقدام الغزاة، وعليه فهو يرى أن انهيار الحضارة راجع: - إلى فقدان الأقلية الحاكمة للطاقة المبدعة فيها، تلك الطاقة التي لها تأثير السحر على البلوريتاريا، ما يدفعها إلى التسامي عن طريق الاقتداء، وحين يفشل الحاكم في إغراء المحكومين والاستجابة له،

يستبدل أسلوب الإغراء بأسلوب القسوة والقوة من أجل الاحتفاظ بمركز ليس جديرا به وهنا تبدأ بوادر الانهيار في البروز.-عزوف الأغلبية عن محاكاة الأقلية بعد أن فقدت الأخيرة مبررات الاقتداء.-فقدان التماسك الاجتماعي سواء بسبب انشقاق الخارجين او سخط المحكومين. وتتمثل تشكلات المجتمع الذي هو في حالة انهيار في 1- أقلية مسيطرة فقدت قدرتها على الإبداع وأصبحت تحكم بالقهر. 2- بروليتاريا داخلية ذليلة ولكنها عنيدة تتحين الفرصة للثورة. 3- بروليتاريا خارجية انشقت عن المجتمع وتقاوم الاندماج فيه وتتحين الفرص للغزو.[***وهكذا فإن المجتمع هو الذي جلب على نفسه عوامل الانهيار قبل ان يجلبها عليه غزو خارجي].*** وتقوم نظرية التحدي والاستجابة على مجموعة من الأفكار: * **فكرة البنوة او الابوة:** تقوم هذه الفكرة على ان الحضارات وليدة حضارات سابقة مثل الحضارة الغربية الحديثة التي تنتسب بالبنوة للحضارة الهيلينية (اليونانية الرومانية)، ويشير توينبي الى ان هناك بض الحضارات لا تنتمي بالبنوة الى حضارة اخرى كما ان هناك بعض الحضارات الاخرى لا تحد من يأخذها كأب، وخير مثل لى ذلك الحضارة المصرية القديمة التي لم يكن لها آباء، كما لم يكن لها أبناء.

- فكرة المدنية القابلة للبدائية: تقوم هذه الفكرة على أن المجتمع الذي هو وحدة الدراسة التاريخية القابلة للفهم إما أن يكون بدائيا او متمدنا، وان غالبية المجتمعات بدائية، وهذه المجتمعات البدائية صغيرة المساحة جغرافيا قليلة السكان قصيرة الأجل تلقى نهايتها غالبا بطريقة عنيفة على يد مجتمع متمدن او متبربر، أما المجتمعات المتمدينة فهي اقل عددا من المجتمعات البدائية وان كانت أوسع مساحة، وتنبني الواحدة فيها لا على الفرد وإنما على الطبقة.* فكرة أوقات الاضطراب: يقصد بها توينبي الفترة الفوضوية التي تأتي بين تآكل أحد المجتمعات وقيام مجتمع آخر وفق مفهوم البنوة.* فكرة البروليتاريا الداخلية: ويقصد بها توينبي مجموعة الأفراد داخل المجتمع الذين لا يدينون لهذا المجتمع بشيء سوى وجودهم، وقد يقدر لهذه المجموعة من الأفراد أن تصبح العامل المهيمن على هذا المجتمع التي تنتمي إليه عن طريق البنوة. *فكرة البروليتاريا الخارجية: ويعني بها توينبي حركة هجرات الشعوب المتبربرة التي كانت تهيم على وجهها وقت احتضار الهيلينية. *فكرة الدولة العالمية والكنيسة

العالمية: تظهر الفكرة كما يرى توينبي في مفهوم المؤسسات التي تضم بين جنباتها كل مناحي الحياة السياسية والدينية للمجتمع الذي تقوم فيه المؤسسات. *فكرة المجتمعات المنتقلة من المتمدين إلى التحجر: وضرب توينبي على مثل هذه المجتمعات -التي كانت متمدينة ومن ثم تحجرت- بالحضارة السومرية والحضارة البابلية والحضارة المكسيكية والحضارة المصرية.

تمر الحضارة حسب راي توينبي على ثلاثة مراحل: م1- مرحلة مولد أو تكوين الحضارة. م2- مرحلة نمو الحضارة. م3- مرحلة تدهور الحضارة وانهيارها. وقد نظر على أنها الحضارة التي ستبقى حية رغم توالي النكبات عليها من طرف الاستعمار الأوروبي في القرن 19م وهذا راجع إلى أنها تتأسس على كم هائل من الطاقات من قبيل: الاتساق بين الفكر والعمل عكس الحضارة الغربية – تحريم الخمر لأن الخمر يسبب قلة النشاط وتوقف الأعمال وهذا ما تجهله الحضارة الغربية.

وقد تعرضت نظرية التحدي والاستجابة للعديد من الانتقادات نذكر أهمها: هناك من يرى بأن توينبي قد وقع في تناقض في عدة مسائل منها – كيف يمكن تسمية الحضارة الحديثة في أوروبا بأنها حضارة مسيحية خاصة بعد أن ظهر بها منذ عصر النهضة الطابع العلماني؟ كيف نوافق على قوله بأن محمد صلى الله عليه وسلم كان يجب عليه أن يظل داعيا دينيا فقط ولا يصبح رجل سياسة وكيف نوافق على قوله بفصل الدين عن السياسة ويريد تطبيق ذلك على الإسلام؟ كيف نوافق على قول توينبي انه لابد من ظهور دين جديد لاجتياز صر الاضطرابات الذي تعانيه حضارة ما وان المخلصين المبدعين يكاد يكونون مقصورين على الرسل والأنبياء؟ - تفرض نظرية توينبي فواصل مصطنعة وقاطعة بين حضارة وأخرى وهذا يلغي مفهوم تفاعل الحضارات الواحدة مع الأخرى ومن ثم لا نوافقه في قوله بتحجر الحضارة المصرية القديمة وبأنه لا يوجد من يمثلها من البشر ولم يتبق منها شيء من ملامحها العريقة.

لكن وبالرغم من الانتقادات التي تعرض لها توينبي إلا انه يظل من عمالقة فلاسفة التاريخ بسبب نظريته التي عكف من خلالها على دراسة حضارات العالم بأسره قديمة وحديثة طوال

نصف قرن تقريبا في عمق وخصوبة وموضوعية، لذلك فهو من حيث دسامة المادة التاريخية لا يناظره مؤرخ أخر. وما يضفي على نظريته قيمة تقييمه الموضوعي لجميع الحضارات دون تفضيل الحضارة الغربية.

****